الفصل الأول

علاقة النفس الإنسانية بالأخلاق

علاقة النفس الإنسانية بالأخلاق

المسئول عن سلوك الإنسان

النفس الإنسانية هي ذات الإنسان ولها ظاهر هو الخَلْق (الجسد) ، كما أن لها باطن هو الخُلُق .

فالخُلُق هو صفة نفسية باطنية تصدر عنها أفعال الخَلْق (جوارح الإنسان) والله تعالى سخَّر الخَلْق لتنفيذ إرادة الخُلُق لذا لا يحاسب الإنسان على كيفية خلْق جوارحه لأن الإنسان لا إرادة له في خلقها إنما هي مخلوقة بإرادة الله تعالى وقدرته ، إنما الله تعالى يحاسب الإنسان على خُلُقه لأنه يصدر بإرادته الإنسانية وقدرته .

فالإنسان إذا سَرَق فيده غير مسئولة عن السرقة إنما هو خُلُقه لذا لا عجب أن تشهد الجوارح على الإنسان يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤] ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصِّلت:٢١]

الفرق بين الإنسان وسائر المخلوقات

والله تعالى خَلَق الإنسان في أحسن تقويم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التِّين:٤] وصوره في أحسن صورة ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ

صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] فالله تعالى هو ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى : ٢، ٣] .

فالله تعالى قد خَلَق الإنسان – وسائر المخلوقات – وقوَّمه وعدَّله وجعله سَوِيًّا في إحكام واتساق مناسبين لما خُلِق له ، والله تعالى قدَّر للإنسان – وسائر المخلوقات – ما يُصْلُحه ثمَّ هداه إليه ﴿.. رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه : ٥٠] .

ولما كان الإنسان هو الذي قبل أن يكون عاقلاً مُخْتَاراً مُكَلَّفاً بشرع الله يُعَاقَب إذا عصى الله تعالى وظلم نفسه وغيره بدخول جهنم ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات : ٣٦ – ٣٩] ويُثَاب إذا أطاع الله ، وكفَّ نفسه عن الشهوات بالإقامة الدائمة في الجنة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات : ٤٠ ، ٤١] .

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب : ٧٢]

لقد قبل الإنسان إذن أن يكون عاقلاً مختاراً مُكَلَّفاً ، لذا جعله الله تعالى مُهَيَّئاً لفعل الصالحات بإرادته وفعل السيئات بمشيئته ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ وهذه النفس الإنسانية التي جعلها الله حرَّة مختارة عرَّفها الخيرَ والشرَ وما يصلحها وما يفسدها ، على لسان أنبيائه ورسله ، وما أرسله معهم من صحفه وكتبه ، وهيَّأها لفعل الخير والشر ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ والفائز بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة هو الذي اتَّبع رسل الله وما أتوا به من كتب مقدسة ، وطهَّر

نفسه من المعاصي والآثام وألزمها بفعل الطاعات وعمل الصالحات {وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} والخاسر في الدارين من كفر بالله ورسله وكتبه وأغرق نفسه في المعاصي والشرور .

ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن يجعل الدنيا دار بلاء وفتن وغرور للإنسان ﴿لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال : ٣٧]

أعوان الإنسان على الإيمان وحسن الخلق

ولقد جعل الله تعالى للإنسان أعواناً على الإيمان والطاعة :

١- الروح : وهى نفخة من روحه سبحانه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص : ٧٢] وهى تهفو إلى معرفة الله، وتطمئن بالإيمان به وتسكن بعبادته جل وعلا والتحلي بصفاته سبحانه.

﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم : ٣٠]

٢- العقل : وهو ما يميز به الحق من الباطل ، الخير من الشر ، والحسن من القبيح " ويصف حجة الإسلام الغزالي العقل بأنه (أنموذج من نور الله) ويصفه الجاحظ بأنه (وكيل الله عند الإنسان) ومن هنا كانت أول كلمة من الوحي الإلهي على محمد ﷺ هي ﴿اقرأ﴾ تتجه إلى مخاطبة العقل " ()

([1]) د. محمود حمدي زقزوق " هموم الأمة الإسلامية " ص ١٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣- القلب السليم : هذا القلب الذي جعله الله تعالى محلا لأمانة الدين، وفطره الله تعالى على حبه والافتقار إليه والعز في الذل له والخشية منه والتوكل عليه ، هذا القلب الذي على أصل الفطرة " التقى النقي الذي لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد " .

٤- الأنبياء والرسل : الذين أنزلهم الله بالهدى ودين الحق وحسن الخلق ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وليبشروا المؤمنين الصالحين بالجنة وينذروا الكافرين والعصاة بالنار .

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام : ٤٨ – ٤٩] .

﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء : ١٦٥] .

٥- شريعة الله ومنهاجه التي أنزلها على الرسل لتكون بمثابة الدستور الإلهي الذي يحتكمون إليه في الدنيا والذي يُحَاكَموا بمقتضاه يوم القيامة.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة : ٤٨] .

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف : ٩] .

أسباب شقاء الإنسان في الدنيا والآخرة

وكما أن الله تعالى جعل للإنسان أعواناً على الإيمان وحسن الخلق ابتلاه ببعض الفتن منها أربع جاءوا في قول الشاعر :

إني بليت بأربع ما سلطت * إلا لأجل شقاوتي و عنائي

إبليس والدنيا ونفسي و الهوى * كيف الخلاص وكلهم أعدائي

إبليس يسلك في طريق مهالكي * و النفس تأمرني بكل بلائي

وأرى الهوى تدعو إليه خواطري * في ظلمة الشبهات و الآراء

وزخارف الدنيا تقول أما ترى * حسنى وفخر ملابسي وبهائي

وكان بلاء الله تعالى لإنسان ؛ ليعلم الذين آمنوا .

﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٠]

وليعلم الله الصابرين المهتدين .

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة : ١٥٥–١٥٧]

وليعلم الله تعالى أي الناس أحسن عملاً .

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود : ٧] .

أما المؤمنون فيسارعون في الإيمان ، وعمل الخيرات ، وتزكية النفوس مستجيبين لنداء الفطرة والعقل والرسل فتؤمن قلوبهم ، وتحسن أخلاقهم وتنفذ جوارحهم شرع الله .

﴿رَّبَّنَا إِنَّنَآ سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ﴾ [آل عمران : ١٩٣] .

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن : ١– ٢] .

واستجابوا لأوامر الله واحتكموا لشرعه .

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور : ٥١] .

ويزيدهم الله تعالى إيمانا وهدى .

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد : ١٧] .

﴿وَيَزِيدُ اللَّـهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم : ٧٦] .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس : ٩] .

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف : ١٣] .

ويحبب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وَلَكِنَّ اللَّـهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّـهِ وَنِعْمَةً وَاللَّـهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات : ٧- ٨] .

أما أولئك الكافرون الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فإن الله تعالى لا يهديهم بل يطبع على قلوبهم فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ﴾

[النحل : ١٠٧ – ١٠٩]

وكذلك من ظلم نفسه باتباع هواه وجحد هدى الله ، ودسَّ نفسه في الرذائل .

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص : ٤٩ – ٥١]

واقعية شريعة الإسلام

إن القرآن الكريم يوجه خطابه إلى الإنسان الحي الواقعي بفضائله ورذائله ، وبقوته وضعفه ، محيطاً بكل ما يكتنف حياته من صعاب وعراقيل تعوقه عن تحقيق الحياة الفاضلة ، وفي مقدمتها الصراع بين هواتف الشيطان ونوازع النفس الأمارة بالسوء ، وبين الروح العلوية التي نُفخت فيه فجعلته يتطلع إلى الارتقاء الروحي والسمو الأخلاقي ، وكأنه يود التخلص من الهيكل الجسماني الذي يحبسه عن الانطلاق وراء اللانهائي .

والإنسان كما أنه ناقص فهو في نفس الوقت قابل لاكتساب الكمال عن طريق الجهد الوارد في تعريف الإيمان بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥]

وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]

والقرآن يتبع التدرج في التقديرات الأخلاقية بدءاً من طلب فعل الخير دون زيادة إلى الترقي لبلوغ مستوى الكمال إلا ما نهاية متمثلاً في التضحية بكل شيء نفيس حتى النفس من أجل القيمة العليا الأغلى من

الحياة حيث حققه الصحابة كأول تطبيق في حياة الأمة في موقعة بدر الكبرى .

إن الأخلاق هي روح الشريعة التي من دواعي الفخر بها إنها تقيم مجتمعاً سعيداً وقوياً ومتضامناً ، فالإسلام وسط واعتدال بين شريعة الخوف وشريعة الحب .

وخلاصة القول إن فكرة طاعة الله عز وجل لا تخلو من الاعتقاد بأن أوامره هي أحكم الوسائل لتحقيق أعظم الخير للإنسانية وللكون كله .. والقرآن الكريم يعنى عناية فائقة بربط كل تعاليم من تعاليمه بالقيمة الأخلاقية التي يتأسس عليها " [1]

وقبل الاستفاضة في أهمية الأخلاق وأثرها وتطبيقاتها نبدأ أولاً بتعريفها حتى نضبط المصطلح الذي نتحدث عنه ولا نبني أحاكمنا على مجهول أو مختلف في فهمه .

***

([1]) د. مصطفى بن محمد حلمي في تقديمه لكتاب " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " د. محمد عبد الله دراز ، تلخيص وإعادة صياغة وإعادة ترجمة محمد عبد العظيم علي دار الدعوة الطبعة الأولى ١٩٩٦ .